

القطار الصاعد الى بغداد

وتحقيق حياة فضلى لأبنائهن !

وتذكرت ، ايضاً ، امي ... عينها الكابية ورقبتها الهزيلة وفهما الدابل المتجمد . واعتصرني شيء من الألم والشفقة عندما تذكرت انني تركتها عند نسبي واخوتي الحريصة على زوجها ، تركتها ، في بيتهم الضيق الرطب ، لتعلك لقمعتها وتعمل بجهد وتعي بالمطبخ والاطفال ، ولتضيق على نفسها فترسل الي ما تستطيع تحصيله ووجهه شهرياً لأتمكن من مواصلة الدراسة العالية ؛ وتمنيت ان اعود اليها ... تمنيت ان القي برأسي على صدرها وابكي متخاذلاً ... ابكي ؟ وحنت على نفسي ، وتمثل لي صديقي عودة الذي كان يشفق علي ببرارة تؤذي ، اذ انني لا ابعث في نفسي الاطمئنان على انني رجل عراك في هذه الدنيا العريضة ، فأنا ما زلت طالباً طرياً قليل التجربة ، مع انه يعلم تماماً انني دخلت الحياة منذ وفاة والدي قبل عشر سنين ومضغني العمل الشاق ، على الرغم من مواصلة دراساتي الاعدادية في المدارس المسائية ... وتمنيت ان استطيع ، في يوم من الايام ، ان ارفع عن نفسي هذه التهمة واثبت لصديقي عودة انني لا اقل عنه حدة وحاسة ، وانني املك مثله كفاً عريضة خشنة . ولكن أأني لي ذلك ؟

وتمنيت ، في هذه المرة ، لو انني اكتفيت بالشهادة الاعدادية وعلمي على ارضفة الميناء ... وعندئذ ، عندئذ قفزت الى ذهني صور باهتة لكنها قاسية ومتعبة ابداً ... رافعات كهربائية تنقل بضائع آتية من الهند وامريكا وانكرا . حمالون مجهدون تقم ظهورهم الصناديق الثقيلة وبالات القطن الكبيرة

قصة هندية بقلم محمد عبد الوهاب

وترجف اقدامهم الخافية التي تحاول ، عيشاً ، ان تثبت على رصيف المحطة . أيد معروقة مصبوعة بالزيت التخين الاسود تدرجج البراميل في جهد وعنف ، بواخر سامقة متسمرة ، بوقار مربع . في مياه شط العرب . غرباء يخطون ببرود ممقوت على ظهور السفن ويمضغون الغايون وينفثون الدخان بتراخ في صمت الميناء وينظرون البنا بدھشة . واستغراب كمن يتفحص حشرة فادرة دفنت رأسها في قشر موزة ! الحمال الجائع ، الذي حاول ان يسرق ، فلف على بطنه ، مرتين ، قطعة قماش ملونة . الهراوة الثقيلة التي هوت على رأسه بشدة ... آخ ... آخ ... زحفه بخوف وتوسل وحذر بين عشرات الارجل المفروزة ، وبين الاحذية اللامعة القاسية وفي قفنها ... زحفه ... كالكلب الجريح ... كالكلب ... كالكلب ...

كان القطار يبتلع الارض بنهم ، وصفيره المزعج ينطلق بحمية وخماس فيتفتت في اجواز الفضاء الخاوي ... بيض . خبز . بيض . جيكير . جيكير ... هداً الركاب الآن ، وخذت قرعة العربات ، واستلقى القطار على القضبان الحديد يل انفاسه المتطيرة ، فاندلقت اصوات الباعة ، الى العربية ، باستعجال واقتضاب كتنقيق الضفادع ؛ بينما كان بعض الركاب يدمدمون وهم يغالبون النعاس وكانت المرأة الشكلى قد انبطحت على ارض المربة وراحت في اغفائة كثية . ونشطت الاقدام مرة اخرى ، وفي باحة المحطة كان المدير البدين يحدث ، بصوت اجش ، عاملاً يحمل فالوساً ملوناً ، ثم قهقه ، في احشاه الضلام ، قهقه عالية وادار ظهره ودب محدودباً الى قبر المحطة المظلم فتلاشي جسمه الضخم في عتمة القبر الموحش الذي يضيئه ذمام مصباح خامل صغير .

عندما صفر القطار صفوته الثانية الحادة المتقطعة ، فكت امي عقدة فوطتها وسلمتني الدينار الوحيد الذي تملكه واستبقت لنفسها ثلاثين فلساً اجرة عودتها من المحطة الى البصرة . وتقدم مني صديقي عودة النجار الذي كان واقفاً على انفراد ، تتحسس نظراته النائمة رصيف المحطة ، فشد على يدي بعنف وقوة ، ففرقت كفي الصغيرة في كفه المريضة الدبقة ، واحتقن وجهه الضخم الملايح وارتحف شاربه الكثيف الاسود المصفر من تكالبه على الدخان ، وتمت كلمات لم استوعبها ؛ بينما كانت عينا امي لا تفارقان وجهي الابيض . وتخصض القطار فأسرعت الى العربية واخذت مكاني الى جانب رجل كبير الكفة ، انكش ، بضالة ، على المقعد الخشبي المنهك ... ثم أطلقت برأسي من النافذة أودع الوجوه الجيبين اللذين سأتركهما ؛ فألفيت امي قد علقت عينها الدامعة على نافذة عريبي بينما كان عودة يتسم ببرارة .

وسار القطار متناقلاً ، كأنه لا يود ان يفاجئ المودعين بسرعته بعدد ركوده المديد في المحطة ، وقد اخذ يقذف من جوفه ، بجنت ، ماء حاراً وبخاراً كثيفاً ابيض ، يشكل في مقدمته منظراً مفزعاً يزيد رهبة قعقته الخشنة المفروزة وكان صفيره الحاد يمزق الجو الذي يغطيه ... ولويت رأسي صوب المدينة فانزلق نظري الى بركة ممتعة تلمع فيها من بعيد مصابيح مستوحشة كثية تمد ظلالها المربضة في شوارع البصرة الفواررة بالناس . وحفت وجهي المتطلع نسمة باردة فارتحفت ، بلدة غامضة ، وادخلت رأسي ، بارتعاش ، وتركت النافذة فاعرة تتلاطمها انسام البر المترامي المظلم .

كان جو العربية مائتاً بدخان السجائر الخانق ، وثرثرة الركاب وصراخ الاطفال يملآن نفسي حقناً ويجسسانها عن الراحة والاسترخاء ، وطقطقة الاقدام العائرة والركاب الذين تكدسوا في الممر والزجة المربعة ، كل ذلك بعث في الضيق الشديد ولهذا كنت كثير الحركة ، قلقاً ، لا استقر في مقعدي . وحين خفتت الدمدمة قليلاً ارتفع ، في العربية المستطيلة ، نجيب امرأة معيدة خطت الحمسين ، ارتمت تحت اقدام المسافرين ، باهمال محزن ، وألقت امامها ، بلا مبالاة ، قفة مطوية بالقار الاسود تكومت فيها اكياس فذرة وملابس عتيقة تبتعث منها رائحة حادة كريهة . ولم تقو المرأة على احتباس عبراتها الخنقة فأفلت منها صرخات بائسة واذن موجه مكتوم بتر احاديث المسافرين ولجم ألسنتهم ... كانت تبكي بحرقة ابنها الوحيد الشاب الذي مات في مستشفى البصرة الكتيب النائي ، وتمخط وتمسح اطراف اصابعها بثوبها الأزرق الخشن وهي تنحب بترنمة محامية مبكية وتضرب بيدها ركبتيها اليسرى ... ثم ارتفعت ، واهنة ، عبرات حية محتنقة مجهولة ولما رفعت رأسي قليلاً تبينت ان امرأة اخرى كانت جالسة ، غير بعيد عني ، اسندت رأسها الرخي المحزون الى نافذة مغلقة وقد ارسلت عندها العليلة خطين من الدموع الصامتة الصادقة ؛ إذ وجدت في بكاء هذه المعيدة واحزانها متنفساً لآلامها المغلولة ، فقد اطبق قلبها المعجوز على آلام غائرة دفينه ...

تأملت هذه المرأة . وجهها المنكش المتقنن ، وعينيها الصغيرتين المحمرتين ، ويدها المرتجفة المعروقة ، وصوتها ، صوتها الباكي آثار في قلبي الرجمة وقفز بي الى احزان سلسلة من الالهات اللواتي عشن في صراع متخاذل بين الحاجة

وفجأة اصطكت وصوت الجنادب والحشرات تصوت بعصبية وحدة كأنها تريد ان تمحو من الجو الغافي صورة مدير المحطة والفانوس الملون والعامل المكدود . وصفر القطار صفرة موحشة ابتلعتهما العتمة السميكة ، وتحرك ببطء وزحف ثم ركض نشيطاً على قضبان الحديد البارد موعلاً في قلب الصحراء متما رحلته الشاقة الى بغداد ... وفتح باب العربة الداخلي ودلف قاطع التذاكر الأصابع ، واندفعت ، بخفة ، حفنة من الرمل الناعم فأغلق قاطع التذاكر عينيه ، بحركة لا ارادية ، واسرع الشرطي الذي يتبعه فسد الباب ، بمقاومة غير عنيفة ، وتبع الموظف عائماً في جلبه العربة بينديته العتيقة هادئاً صامتاً :

-- بطاقتك .

-- فضل .

وألح احد الركاب في ايقاظ صديقه الذي غمد على الحشبة المرتفعة الضيقة المكسدة بالحقائب والصناديق الحديد ، فاستيقظ الرجل بجهد ، وفتح عينيه بضجر وغيا ، ثم فر كها ومد نظره حوله باستغراب ودس يده في جيبيه واخرج بطاقة السفر وسلمها الى صديقه وعاد مستعجلاً الى نومه . ولعل في في العربة صوت

بغداد ي مكرش
يهذر بسرعة وتدفق
ورعونة . كان فيه
المتفتح بلوك لقمة
كبيرة وهو لا يني
عن ضوئائه وينظر
بين فترة وفترة ،
الى شابة ذات وجه
مفرقد سقط رأسها
الناعس بين كتفها .
كان ينظر اليها
بشهوة وحشية وهو
يحدث صاحبه بسرعة
ويأكل بشراهة
ويضحك باقتضاب ،

ومن دون سبب ... ثم قدم لصاحبه شيئاً من عشائه إلا ان اضاراه الثقيلة خبطت اللقمة دون تمهل . حاول ان يتكلم بعربية فصيحة إلا انها جاءت ، غالباً ، مرقعة مضحكة التراكيب والمفردات . وتأني في كلامه بتكاف ظاهر السذاجة وهو يكشف ، بين لحظة وأخرى ، وبصورة يتكاف في تعميته ، عن جانب من حياته الرخيصة العت ، متظاهراً بعدم اكترائه للنساء ! كان سائقاً اجيراً لسيارة لوري ثقيلة تعمل في تهريب البضائع عن طريق الصحراء ها . ها . سيدي رجل كريم . يتسم لي كثيراً . ويدعوني الى مشاركتة الغداء . ها . ها . ابنته الصغيرة ؛ وهز رأسه بحركة كاذبة ؛ تمودت ان تدعوني .. عمو .. عمو ! وصفر القطار باستمرار عنيد ، وبان من بعيد مصباح اهر خافت ، واعتدل في سيره ثم ابطأ ووقف عند محطة حرساء إلا من نباح كلب جائع كان ينبعث من الكوخ المفرد المتهمم ... وارتفعت ، في داخل العربة عدة طرقات شديدة على زجاج الباب ثم صوت عاجز مبحوح :

-- هك الباب

وأجاب رجل في داخل العربة :

-- رح من الباب الثاني . هذا الباب وراه اغراض .
كان رجلاً هزلاً طويلاً في الخنادة من الخلف ؛ وقد شد رأسه بتدليل اخضر وأطل وجهه النحيل وخداه الغائران على الحياة بوهن وتحاذل . كان يتكلم بصعوبة ومشقة ظاهرة ويتنفس بجهد بينما كان صدره يصفر صغيراً واضحاً . وقد رجع الى مكانه والقي بنفسه على الفراش المشدود المكور في الراوية ثم مسح بيده رأس طفله النائمة ، ومد رجله ، وتأف ، وذابت نظراته ، وتحركت ببطء امرأته المتكئة على جانب الفراش وتنهت وهي تضم ذيل عباءتها الكالحة اليها ثم راحت من جديد في نومها . كان موظفاً منقولاً الى الديوانية ، خلت حياته من بارقة امل وباتت باهتة رتيبة متكررة مألوفة ، عمل اكثر من خمس وعشرين سنة موظفاً ضليل الراتب ، لا ينتظر في حياته

جديداً الا الموت ! انه يعيش بلا امل ، ضجراً متبرماً ...
آه .. ما اضيق هذا المكان ! ما اتيس هؤلاء ! اني اكراه هؤلاء باشفاق !
ذلك السائق الثرثار الذي ينعم بحياته التافهة الجافة ، وهذا الموظف المكدود !
آه . ليت صديقي عودة يراني الآن وأنا أحسن هذه العواطف المتضاربة . لقد بدأت اشعر انني اصبحت رجلاً ! اكراه الخمول والجحود والافواه المليئة بالثرثرة ، وفرحت



كثيراً عندما احسست بهذه المشاعر الغريبة .
اين صديقي عودة ؟
اريد ان احديثه ،
بلا انقطاع ، عن
السائق المكشوش
الذي يكدر كثير
مصوب . وهذا
الموظف الهزيل !

وتسمرت عيناها
في المصباح المتحضر
الذي تراكم عليه
الغبار وتقاذفت عليه
بنشاط وخفة
الحشرات الهائجة

المتعاركة المتزاحمة ، واحسست ان القطار بدأ يتأيل حتى كاد ان يسقط وتمثلت لي صور متلاطمة متداخلة ورفعت يدي الى رأسي الثقيل وعيني المجهدين . كان القطار يقطع هذه الصحراء ، دون مال وغير مال بالتمتع والمسافة وعواء الذئب . وسقط رأسي بين كتفي وعفوت . وكنت بين حين وآخر ، افتح عيني ، بجهد ، لأرى رؤوساً متهممة مطرفة متكررة متراقصة ومصباحاً مرتعشاً قد ظهرت الى جانبه القطعة الخشبية المكتوب عليها بالعربية والانكليزية (للجلوس ٦٤) . وأفقت احياناً ، وألقت الشمس تشر ضوءها على الارض المقفرة بساحة ، والعربة تكاد تكون حالية . نزلت المعيدة المكلمة في أور إلا انني اراها وكأنها لا تزال في ضجعتها كومة حزينة . الموظف الذليل يندس الآن مغموراً في تيار الناس ؛ هو وزوجته وطفله . اما البغداد ي فلما يزل يثرثر إلا انه بدأ يشعر بالملل والتعب . ولما رأى انصراف الآخرين عنه فانه لم يعد يهذر بأحلاص وجسارة كما كان .

القطار يركض بارجله الكثيرة . لا يقف في المحطات الصغيرة المتناثرة على جانبي السكة الا دقائق قليلة وهو يشق طريقه ، الآن ، في ارض خفراء

السَّجِينُ

أصوات : يا ظلام يا عيب الأوهام
يا رفيف الأحلام يا ظلام
دائماً على رفيق صبانا دلتنا ولا تشرّد خطانا
ما لنا في هذه الدنيا سواه
ما له في هذه الدنيا سوانا
نحن رؤاء نحن مناه
صوت : هو في الزندان يسكب الأحزان
يا صبانيا الحنين لا تقولي سجين
إنه مازال في فجر صباه تهادى مقلته
وهو زاهي الجبين هل ترى سمعين؟
السجين : ابتسم يا ظلام يا رفيف الأحلام
يا رفيق الآلام يا ظلام
واواني الصحب ذا سنجي رجب
فابسم يا حب وافرح يا قلب
أصوات : يا شاعر الآلام عدنا على جناح الخيال
وجاهل الآفاق ردنا نشيع روح الجمال

السجين : من أي غيب عدت يا أرواح

أصوات : من عالم فتكت به الاتراح
تتصارع الآفات في جناته كرهاً ويضحك ذلك السفايح
ويطل من علياء متسرّلاً بالسنخر

السجين : سوف تبدد الأشباح
ويفر حمار الشعوب مولولاً فخموره كفرت بها الافداح
عودي الى الدنيا ولا تنأني تهوي القصور ويسلم المفتاح
أصوات : نحن أرواحك الحسان نهبط الارض كل آن
سوف نقضي على الهوان

نحن في أول الطريق تنغافى ويستفيق
خيالك المشرق مرتعنا وعلاك المطلق مرعبنا
تبدد الجهل والضلال

ونشر الخير والجمال
صوت : أيها العنق السجين

زادك السجين انطلاقة
فتجديت السنين

وتصورت الرفاق
عائدين بالتعباد

من ليالي الجهاد هاتفين :
أصوات : ابتسم يا ظلام

يا رفيق الآلام
باني الآلام يا ظلام..



مصطفى محمود
من امرأة الجبل الماه

يتأففون ، من ايادي الركاب ، حقائبهم وصناديقهم ، وسائقو السيارات
يجرون الركاب حراً الى سياراتهم المنتظرة في حارج المحطة ، وقد راوحوا
في حماسهم يغرون المسافرين بلسانهم الخلو الطويل الممارسة . احدث انظر في
عمق الى هؤلاء الاحياء ، وشعرت في نفسي نشاطاً ذاتياً متدهقاً اسقيته من
حاسة الجمالين وسائقي السيارات وسائط المحطة العتيق .
ولما رفعت حقيبتي شعرت كأنني اندفعت ، وان ساعدي الطري بدأ بضجم
ويشتد ويقوى وان عضلات متينة ، متينة جداً ، وممبولة جداً بدأت تظهر
فيه وتاتف وتلتصق وتتسابك وتثقل لي امني بقوطنها ضاحكة ، كالو امها
كانت تصحك ، كعادتها ، تحت اهدام سلم دسا العتيق ، وان صديقي عودة
قد امتلأت نفسه ايماناً ، ودمعت الحقيده الى الامام واحتاجي نصيب وببوسة
في ظهري عندما اندست بين تلك الكمل المتصارعة المتراخية في الممر الضيق ،
ولما اندمعت بقوة وشققت طريقي الى حارج المحطة أحسنت ان الارض
بدأت تتسع لخطواني ، وان شيئاً ما ، في داخلي ، دائماً عربياً حلماني ابدو
اكثر ايماناً ، فوصمت اهدامي في الطريق المريرة وأخذت اسير متبعاً ذلك
الانسان القوي الصخم المتين المعتلات .

المهرة محمود عبد الوهاب

منخفضة منتشرة بانساع رحب والحراف الوديمة السائلة ترعى ناطمثنان وتلوك
الحشيش الاخضر الندي بثان مألوف وعندما يصفر القطار كانت تعزح هاربة
من صراخه المدوي . الاطفال ينتصبون باجسادهم الصغيرة شبه الغارية
ملوحين باكفهم ، وجرح برى ، للركاب ، فرحين بهذا الحيوان النشيط
المتزلق بين اكواحهم المهترئة الهابطة ، وقروعة العربات المتدافعة تندلق في
رؤوسهم فيحشون بسرعة آذانهم باصابعهم ليدعموا بها هذه الضجة المدوحة
وجوهم السم المافجة بحرارة الشمس تحتضن ابتسامة ساذجة مألوفة .
كانت ضربات القطار الرتبة على السكة تعان انتهاء الرحلة ، هذه بغداد .
بغداد ! الارض الواسعة المنخفضة الحصره . المآذن التي تلوح من بعيد .
المحطة المتربعة باستسلام تدو في مقدمة المدينة الكبيرة كأنها في استقال
المسافرين !

كان القطار لا يرال يرسل صفيره المتتالي في الخو ، الا انه بدأ يتراخي
في سيره قليلاً ويبطئ ، ثم زحف هدهو ووهف متمماً مجهد الانفاس لاهناً .
واندفع الجمالون وسائقو السيارات الى عربات القطار وارتفعت ايديهم ،
متشابكة ، لتكسب الركاب ، والتفت فوحدت السائق الثرثار ينمض عن
بدلته الغبار وقد اكسبه وجهه المحمر المتفرج سمة الغي الطين . كان الجمالون